

تُعد نظرية التعلم التفاعلية التي قدمها جيروم برونر من أبرز التصورات البنائية في علم النفس التربوي، إذ تؤكد أن التعلم عملية نشطة يبني فيها المتعلم معرفته بنفسه من خلال تفاعله مع بيئاته المادية والاجتماعية والثقافية، وليس مجرد استقبال سلبي للمعلومات. فالمعرفة، وفق هذا التصور، لا تنتقل جاهزة من المعلم إلى المتعلم، بل تتشكل تدريجياً عبر نشاط عقلي يعتمد على الاستكشاف، وربط التجارب السابقة بالمواقف الجديدة، والسعي إلى إدراك المعنى الكامن وراء المعلومات. ويرى برونر أن التعلم الحقيقي يتحقق عندما يُتاح للمتعلم أن يكتشف المفاهيم والعلاقات بذاته، وهذا ما يعرف بالتعلم بالاكشاف. في هذا النمط، لا يُقدم المحتوى التعليمي في صورته النهائية، بل يُنظم في شكل مواقف مشكلة وأسئلة ومحفزات تدفع المتعلم للملاحظة والبحث وصياغة الفرضيات والتحقق منها. يسهم هذا الأسلوب في تنمية التفكير العلمي، وتعزيز الدافعية الداخلية، وترسيخ الفهم العميق الذي يدوم أثره أكثر من التعلم القائم على التلقين والحفظ. من أهم إسهامات برونر تصوّره لأنماط التمثيل المعرفي، حيث يوضح أن الإنسان يعبر عن معرفته ويفهم العالم من خلال ثلاثة أنماط متكاملة: أولها التمثيل الحسي الحركي الذي يعتمد على الفعل والتجربة المباشرة والتعامل المادي مع الأشياء. وثانيها التمثيل الأيقوني، الذي يتم عبر الصور والرسوم والتخيلات البصرية. وثالثها التمثيل الرمزي الذي يعتمد على اللغة والرموز والمفاهيم المجردة. ويؤكد برونر أن التعليم الفعال ينبغي أن يوظف هذه الأنماط جميعاً، وأن ينتقل بالمتعلم تدريجياً من الخبرة الحسية إلى الفهم الرمزي المجرد. كما قدم برونر فكرة المنهاج الحلزوني، التي تقوم على أن أي موضوع دراسي يمكن تدريسه في أي مرحلة عمرية إذا صيغ بصورة مناسبة لمستوى المتعلم. ويُعاد تقديم المفاهيم الأساسية نفسها عبر السنوات الدراسية في صورة أعمق وأكثر تجرّداً، مما يسمح ببناء الفهم تدريجياً وتوسيع البنية المعرفية للمتعلم. ويعكس هذا التصور إيمان برونر بقدرة التعليم الجيد على دفع النمو المعرفي وعدم الاكتفاء بانتظار النضج التلقائي. ويولي برونر أهمية كبيرة للغة والثقافة بوصفهما إطاراً يحدث داخله التعلم، فاللغة أداة أساسية للتفكير وبناء المعنى، والحوار مع الآخرين يساعد المتعلم على تنظيم أفكاره وتطوير فهمه. ومع ذلك، لا يحرص برونر التعلم في التفاعل الاجتماعي فقط، بل يجمع بين النشاط الفردي والاكتشاف الذاتي من جهة، والتفاعل الثقافي والاجتماعي من جهة أخرى. وفي ضوء هذه الرؤية يتغير دور المعلم؛ إذ لم يعد ناقلاً للمعلومات، بل منظماً للبيئة التعليمية وموجهاً لعمليات الاكتشاف. فهو يقدم دعماً مؤقتاً للمتعلم عبر التوجيه وطرح الأسئلة وتبسيط المهام، ثم يسحب هذا الدعم تدريجياً ليصبح المتعلم أكثر استقلالية وقدرة على التعلم الذاتي. وخلاصة القول إن نظرية برونر التفاعلية تنظر إلى التعلم بوصفه عملية بنائية نشطة تقوم على الاكتشاف والتفاعل وبناء المعنى. وهي تركز على دور المتعلم الفاعل، وعلى تنظيم المعرفة بصورة متدرجة، وعلى تصميم تعليم يثير التفكير لا الحفظ. لذلك كان لهذه النظرية أثر كبير في التوجهات الحديثة نحو التعلم النشط والتعليم القائم على الفهم العميق. لقد قدم نموذج التعلم بالاكشاف، الذي يحفز المتعلم على صياغة الفرضيات واختبارها، مما يتيح له بناء معرفة قائمة على الفهم العميق بدلاً من الحفظ الآلي. **ما الذي يميز نظرية "برونر" عن نظريتي "فيجوتسكي" و "بياجيه"؟** تندرج نظريات كل من جيروم برونر وليف فيجوتسكي وجان بياجيه ضمن الاتجاه البنائي في تفسير التعلم، إذ تنطلق جميعها من أن المتعلم لا يستقبل المعرفة بصورة سلبية، بل يبنيها من خلال نشاطه وتفاعله. غير أن نظرية برونر التفاعلية تتميز عن نظريتي فيجوتسكي وبياجيه في عدد من الأبعاد المفاهيمية والتربوية التي تمنحها طابعاً خاصاً، لاسيما من حيث مرونة التعليم، ودور الاكتشاف، وصياغة المنهج. فمقارنة بنظرية بياجيه، التي تقوم على وجود مراحل نمائية معرفية متتابعة ومرتبطة بالعمر الزمني، يرى برونر أن البنية المعرفية للمتعلم يمكن تنميتها عبر التعليم المنظم، وأن أي موضوع دراسي يمكن تدريسه في أي مرحلة عمرية إذا قُدم بصورة تتناسب مع مستوى المتعلم. ومن هنا طرح فكرة المنهاج الحلزوني الذي يقوم على إعادة تقديم المفاهيم نفسها عبر مستويات متدرجة من العمق والتجريد. بهذا المعنى، يمنح برونر التعليم دوراً فاعلاً في دفع النمو المعرفي، بينما يميل بياجيه إلى اعتبار النضج شرطاً سابقاً للتعلم. كما يتميز برونر بتحديد أنماط التمثيل المعرفي الثلاثة (العملي، والأيقوني، والرمزي) وهو طرح يقدم إطاراً تطبيقياً واضحاً لتصميم المواقف التعليمية، في حين ركز بياجيه أكثر على البنى المعرفية الداخلية دون تقديم نماذج تدريسية مباشرة. أما بالمقارنة مع فيجوتسكي، الذي يؤكد أن التعلم ظاهرة اجتماعية في جوهرها وأن التفاعل اللغوي مع الآخرين هو المحرك الرئيس للنمو المعرفي، فإن برونر يتبنى موقفاً أكثر توازناً؛ إذ يعترف بأهمية التفاعل الاجتماعي واللغة، لكنه لا يحرص التعلم فيهما، بل يمنح الاكتشاف الفردي دوراً محورياً أيضاً. فالتعلم عند برونر عملية بحث واكتشاف يقودها المتعلم ذاته ضمن بيئة تعليمية غنية. كذلك، ورغم ارتباط مفهوم الدعائم التعليمية تاريخياً بأعمال برونر المتأثرة بفيجوتسكي، فإن "برونر" قدم هذا المفهوم بصيغة إجرائية تربوية واضحة، مركزاً على كيفية تقديم المساعدة المؤقتة للمتعلم ثم سحبها تدريجياً لتعزيز استقلاليته. وعليه، يمكن القول إن ما يميز نظرية "برونر" هو

جمعها بين البعد المعرفي والبعد التربوي التطبيقي بصورة متوازنة؛ فهي لا تكتفي بتفسير كيف يحدث التعلم، بل تهتم بكيفية تنظيمه داخل الصف. لقد نقل برونر الفكر البنائي من مستوى التفسير النفسي إلى مستوى التصميم التعليمي، فجعل من الاكتشاف، والتمثيل المتدرج للمعرفة، وبناء المنهج الحلزوني أساساً عملية للتدريس. لذلك تعد نظريته من أكثر النظريات البنائية قابلية للتطبيق في السياقات التعليمية المعاصرة، حيث تركّز على تنشيط دور المتعلم، وتنمية التفكير، وبناء الفهم العميق بدلاً من الحفظ الآلي. يمكن القول إن "برونر" يتميز بكونه الأكثر توجهاً نحو التطبيق التربوي العملي بين الثلاثة؛ إذ قدم تصورات قابلة للتحويل مباشرة إلى استراتيجيات تدريس، مع حفاظه على الأساس البنائي المعرفي.